

Vol 04 المجلد 04 Num 02 العدد 02	حفريات المعرفة Hafriyat Al- marefa	Issn : 2830-912X ديسمبر 2024
--	---	--

الرواية العربية كوعاء للذاكرة الجمعية: تشكيل الوعي بالهوية في مواجهة تشظي الخطاب الرسمي

The Arabic Novel as a Vessel for Collective Memory:
Shaping Identity Consciousness in Confrontation with the Fragmentation of
Official Discourse

د. بن حليمة خديجة

Dr. Khadija Benhalima

BENHALIMA20@GMAIL.COM

جامعة يحيى فارس بالمدينة - الجزائر

University of Yahia Fares, Medea - Algeria

الملخص:

تتناول هذه المداخلة دور الرواية العربية في الحفاظ على الذاكرة الجمعية وصياغة وعي هوياتي نقدي. انطلاقاً من إشكالية تشظي الخطاب الرسمي السائد في العديد من البلدان العربية، سواء بسبب آثار الاستعمار أو صراعات ما بعد الاستقلال أو الهويات الفرعية، تطرح الدراسة فرضية مفادها أن الرواية قد أنشأت فضاءً سردياً بديلاً يعمل كـ "وعاء" لحفظ وتأويل الماضي.

تعتمد المداخلة على المنهج التاريخي الاجتماعي وتحليل الخطاب السردي، من خلال الوقوف على نماذج روائية جزائرية وفلسطينية تمثلت المآسي الجماعية وساهمت في تشكيل رواية مضادة للخطاب الأحادي. وتخلص إلى أن الرواية العربية، من خلال تفعيلها للذاكرة، تساهم ليس فقط في الحفاظ على الهوية وإنما أيضاً في صناعة وعي حضاري نقدي قادر على مساءلة الماضي واستشراف مستقبل أكثر توازناً.

الكلمات المفتاحية: الرواية العربية، الذاكرة الجماعية، الوعي بالهوية، الخطاب الرسمي، السردية المضادة.

Abstract:

This paper examines the role of the Arabic novel in preserving collective memory and formulating a critical identity consciousness. Starting from the problem of the fragmentation of official discourse prevalent in many Arab countries, whether due to the effects of colonialism, post-independence conflicts, or sub-identities, the study proposes the hypothesis that the novel has created an alternative narrative space that functions as a "vessel" for preserving and interpreting the past.

The paper relies on the socio-historical method and narrative discourse analysis, by examining Algerian and Palestinian novelistic models that embodied collective tragedies and contributed to the formation of a counter-narrative to monolithic discourse. It concludes that the Arabic novel, through its activation of memory, contributes not only to preserving identity but also to manufacturing

a critical cultural consciousness capable of questioning the past and envisioning a more balanced future.

Keywords: Arabic Novel, Collective Memory, Identity
Consciousness, Official Discourse, Counter-Narrative.

مقدمة:

تشكل الذاكرة الجمعية العمود الفقري لأي هوية حضارية، فهي الخزان الذي تُستمد منه معاني الانتماء وتُفسر من خلاله تجارب الحاضر. غير أن هذه الذاكرة كثيراً ما تكون محل صراع بين روايات متعددة، أبرزها "الخطاب الرسمي" الذي تنتجه السلطة بصورتها الأحادية، والذي يعمد في كثير من الأحيان إلى تشويه الماضي أو تهيمشه أو تجزئته لخدمة رؤية سياسية ضيقة، مما يؤدي إلى "تشظي" في الوعي الجمعي (1).

في الواقع العربي، تفاقمت هذه الإشكالية بسبب تداخل عوامل متعددة: آثار الاستعمار الممتدة، صراعات ما بعد الاستقلال، التناقضات الأيديولوجية، والهويات الفرعية (الطائفية، الإثنية، الجهوية) التي تتنافس على فرض روايتها للتاريخ (2). هذا التشظي لا يهدد فقط الوحدة الاجتماعية بل يعطل أيضاً تكوين وعي هوياتي نقدي قادر على مساءلة الماضي واستشراف مستقبل مشترك.

في هذا الإطار، برزت الرواية العربية ليس فقط كفن سردي، بل كمؤسسة ثقافية فاعلة في عملية حفظ الذاكرة وصناعة الوعي.

تهدف هذه المداخلة إلى الكشف عن الآليات التي تتحول بها الرواية إلى "وعاء" حاضن للذاكرة الجمعية، وكيف تساهم، من خلال سردياتها المضادة، في تشكيل وعي هوياتي نقدي يتحدى التشظي الذي يفرضه الخطاب الرسمي.

ستعتمد الدراسة على المنهج التاريخي الاجتماعي لربط النصوص بسياقاتها، ومنهج تحليل الخطاب السردى لفهم آليات اشتغال الرواية على الذاكرة. وسنقف على نماذج روائية من الجزائر وفلسطين، كونها تمثل حالات بارزة عانت من إشكالية الهوية والذاكرة بشكل حاد ومأساوي.

1. الإطار النظري: الذاكرة الجمعية والرواية كسردية مضادة

يشير مفهوم "الذاكرة الجمعية"، كما صاغه عالم الاجتماع موريس هالبواكس، إلى تلك الذاكرة المشتركة التي يكونها المجتمع حول أحداث ماضية تعتبر مؤسسة لهويته (3). وهي تختلف عن التاريخ الرسمي بكونها حية، عاطفية، انتقائية، وتخضع دائماً لإعادة التفسير والتشكيل من قبل الأفراد والجماعات. أما "الخطاب الرسمي"، فهو النسخة المهيمنة من رواية الماضي التي تنتجها وتكرسها مؤسسات السلطة (التعليم، الإعلام، الخطاب السياسي الرسمي)، بهدف بناء شرعية معينة وفرض رواية أحادية تحو بدائلها (4).

في السياق العربي، يتجلى تشظي هذا الخطاب في تناقض الروايات حول الأحداث الكبرى المؤسسة للدول الوطنية الحديثة. فالثورات، حروب الاستقلال، الانقلابات، والحروب الأهلية يتم تقديمها من خلال روايات متعددة ومتنافرة تخدم أطرافاً سياسية أو هويات فرعية (5). النتيجة هي ذاكرة جماعية مشظاة، ووعي هوياتي مهزوز، وخطاب رسمي يفقد مصداقيته لتعارضه مع تجارب الناس الحية.

هنا، تبرز الرواية ككون سردي مرن وقادر على استيعاب هذه التناقضات. لا تقدم الرواية حقيقة واحدة، بل تخلق فضاءً لتعدد الأصوات والروايات. إنها، باستعارتها لتقنيات مثل تعدد الأصوات السردية، التداخل الزمني، والواقعية السحرية، تقوم بدور "السردية المضادة" (Counter-Narrative) التي تعيد تركيب الذاكرة من منظور المهمشين والضحايا، ملمة الشتات الذي تخلقه الخطابات الرسمية المشظاة (6).

الرواية بهذا المعنى هي "وعاء" وجودي وأدبي يجمع شتات الذاكرة ويحولها إلى قوة دفع نحو وعي هوياتي أكثر نقدية وتعددية.

2. آليات اشتغال الرواية: من التوثيق إلى بناء الوعي النقدي

تشتغل الرواية العربية على الذاكرة عبر آليات متعددة ومعقدة، نجمل أبرزها في:

- توثيق المسكوت عنه وتاريخ المهمشين: تتحول الرواية إلى أرشيف حي للتفاصيل اليومية، المآسي الشخصية، وصور الحياة التي يتجاهلها الخطاب الرسمي أو يعمد إلى طمسها (7). إنها تخزن في نسيجها السردي ذاكرة "المنسيين" - الضحايا، المهزومين، النساء، والأقليات - ممن لا يجدون مكاناً لهم في سردية البطولة الرسمية.
- تفكيك الخطاب الرسمي وتعرية آلياته: تعيد الرواية قراءة الأحداث "المقدسة" أو الرسمية بمنظور نقدي. من خلال عين الراوي أو الشخصيات، يتم كشف التناقضات والمسافات بين رواية السلطة المجزأة وحقيقة التجربة الإنسانية المعاشة (8). هذا التفكيك يزيل القداسة عن الرواية الأحادية ويفتح المجال لتعددية تفسيرية، وهي الخطوة الأولى نحو وعي نقدي.
- بناء سردية بديلة جامعة عبر الموروث والرمز: عبر استحضار الرموز التراثية، الأسطورية، والموروث الشعبي، تبني الرواية سردية هوياتية عميقة الجذور ومتجاوزة للحدود السياسية الضيقة (9). هي تربط الحاضر بالماضي السحيق وبالمجال الحضاري العربي والإسلامي الأوسع، متجاوزة بذلك القطيعة التي يخلقها خطاب الدولة القطرية الحديثة، وتقدم أساساً أكثر متانة وثراءً للوعي الهوياتي.

3. دراسة حالة: النموذج الجزائري والفلسطيني - ذاكرة المأساة وسردية

المقاومة

أ. ذاكرة الثورة والهوية في الرواية الجزائرية: نموذج "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي

تشكل رواية "ذاكرة الجسد" (1993) لأحلام مستغانمي نموذجاً صارخاً ومبكراً لاشتغال الرواية على الذاكرة في مواجهة الخطاب الرسمي. تعيد الرواية كتابة تاريخ الثورة الجزائرية ليس من منظور البطل المنتصر الذي تكرسه الدولة، بل من خلال جروح الجسد والذاكرة التي لا تندمل. الشخصية الرئيسية، خالد (الذي فقد ذراعه في الثورة)، هو صورة للمناضل الذي تخذله الدولة بعد الاستقلال وتحوله إلى أيقونة صماء، فتصبح ذاكرته الشخصية وجسده المشوه سجلاً حياً لخيبة أمة بأكملها (10).

الرواية هنا توثق المسكوت عنه في الرواية الرسمية للثورة: الخيانات الداخلية، صراعات ما بعد الاستقلال، تحول الأحلام إلى كوابيس. إنها تكشف عن التشظي العميق بين خطاب السلطة المنتصرة وذاكرة الأفراد المحطمين. من خلال هذا التوثيق النقدي للألم، تسعى الرواية إلى بناء وعي هوياتي جديد، لا ينفصل عن مساءلة الحاضر واستعادة الذاكرة الشخصية كمنبع للحقيقة، متحدياً بذلك السردية الرسمية المجردة والمجتزأة.

ب. صمود الذاكرة في مواجهة المحو: الرواية الفلسطينية ونموذج "عائد إلى حيفا" لغسان كنفاني

تمثل رواية "عائد إلى حيفا" (1969) لغسان كنفاني مثلاً تأسيسياً ومركزياً لدور الرواية في الحفاظ على الذاكرة الجمعية كأساس للمقاومة والهوية. تواجه الرواية المشروع الصهيوني القائم على محو الذاكرة الفلسطينية (إلغاء الأسماء، تدمير القرى، إنكار الوجود نفسه). من خلال حكاية سعيد وصفية العائدين بعد عشرين عاماً إلى بيتهم في حيفا المحتلة، ليجدها قد سُكِنَ به مهاجر يهودي وابنها المفقود الذي تبني كيهودي، تبني الرواية "سردية مضادة" تثبت الوجود

وتؤرخ للحظة النكبة ليس كحدث انتهى، بل كذاكرة حية مستمرة، وجرح مفتوح يورث عبر الأجيال (11).

الرواية هنا هي الوعاء الأمثل الذي يحفظ تفاصيل المكان (البيت، الشارع، المدينة) والهوية (الاسم، التاريخ، العلاقات الأسرية). من خلال تشابك الماضي والحاضر في الموقع الجغرافي ذاته، تشكل الرواية وعياً هوياتياً قائماً على التمسك بالذاكرة كأداة للمقاومة الحضارية في مواجهة مشروع محو شامل. إنها تقدم الذاكرة ليس كحنين للماضي، بل كإستراتيجية وجود للمستقبل.

خاتمة:

تكشف هذه المداخلة كيف تتحول الرواية العربية من مجرد نص أدبي جمالي إلى فاعل مركزي في الحقل الثقافي والسياسي. إنها، من خلال عملها كـ "وعاء للذاكرة الجمعية"، تقوم بمهمة مضاعفة وجوهريّة:

أولاً، مهمة الحفظ والوثوق من خلال توثيقها للمسكوت عليه وتفكيكها النقدي للخطاب الرسمي المشطوي.

وثانياً، مهمة البناء والتأسيس عبر مساهمتها الفاعلة في تشكيل وعي هويتي نقدي، متعدد، ومرن، يقوم على التساؤل وإعادة التفسير بدلاً من اليقينيّات الجاهزة والسرديات المغلوطة.

وبهذا، تتجاوز الرواية وظيفتها الجمالية لتصير أداة لا غنى عنها في صناعة الوعي الحضاري، ذلك الوعي القادر على فهم تعقيدات الماضي والتعامل معه بصدق وجرأة، كمقدمة ضرورية وحتمية لاستشراف مستقبل لا يكرر أخطاء الماضي، ويحافظ على التعددية والغنى الداخلي للأمة.

رغم التحديات التي تواجهها (الرقابة، هيمنة الخطابات الإعلامية السريعة، تحدي النشر)، تبقى الرواية فضاء الحرية والعمق الأوسع لإعادة تخيل الذات الجماعية، وتذكر ما يُراد إخفاؤه أو نسيانه، مكرسة نفسها كأحد أهم أدوات المقاومة الثقافية وصناعة الوعي في العالم العربي.

الهوامش وقائمة المراجع:

- (1) عبد الله حمودي، "الذاكرة والنسيان: في تأثيرات العنف السياسي"، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد 12، خريف 2015، ص 45-46.
- (2) برهان غليون، "المسألة الطائفية وصناعة الأقليات في المشرق العربي"، (بيروت: دار الطليعة، 2012)، ص 88.
- (3) Maurice Halbwachs, *On Collective Memory*, edited, translated, and with an introduction by Lewis A. Coser (Chicago: University of Chicago Press, 1992), p. 22-24.
- (4) Michel Foucault, *Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings, 1972-1977*, ed. Colin Gordon (New York: Pantheon Books, 1980), p. 131.
- (5) سعد الدين إبراهيم، "التعددية والنهضة في المجتمع العربي"، في: إشكالية الهوية في العالم العربي، تحرير مجموعة باحثين (عمان: دار الشروق، 1999)، ص 211-213.
- (6) لينا هويان الحسن، "السرد المضاد: الرواية العربية وتفكيك مركزية الخطاب"، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2018)، ص 76-78.
- (7) عبد الفتاح كيليطو، "الأدب والارتباب: مساءلة الذات والآخر في الثقافة العربية"، ترجمة محمد البرغوثي (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2007)، ص 60-62.
- (8) Edward W. Said, *Culture and Imperialism* (New York: Vintage Books, 1994), p. xii.
- (9) جابر عصفور، "مرابا الهوية: الدراسات التي سعت إلى تشكيل الوعي بالذات العربية"، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2013)، ص 185.
- (10) أحمد يوسف، "خطاب ما بعد الاستقلال في الرواية الجزائرية: أحلام مستغانمي نموذجاً"، (الجزائر: منشورات الاختلاف، 2015)، ص 120-125.
- (11) فيصل دراج، "الرواية وتأويل التاريخ: من النكبة إلى النكسة"، (رام الله: دار الشروق، 2002)، ص 95-100.

المراجع الإضافية:

* الحسن، لينا هويان. "السرد المضاد: الرواية العربية وتفكيك مركزية الخطاب". بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2018.

* دراج، فيصل. "الرواية وتأويل التاريخ: من النكبة إلى النكسة". رام الله: دار الشروق، 2002.

* سعيد، إدوار. "الثقافة والإمبريالية". ترجمة كمال أبو ديب. بيروت: دار الآداب، 1997.

* عصفور، جابر. "مرايا الهوية: الدراسات التي سعت إلى تشكيل الوعي بالذات العربية". القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2013.

* غليون، برهان. "المسألة الطائفية وصناعة الأقليات في المشرق العربي". بيروت: دار الطليعة، 2012.

* كيليطو، عبد الفتاح. "الأدب والارتباب: مساءلة الذات والآخر في الثقافة العربية". ترجمة محمد البرغثي. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2007.

* يوسف، أحمد. "خطاب ما بعد الاستقلال في الرواية الجزائرية: أحلام مستغانمي نموذجاً". الجزائر: منشورات الاختلاف، 2015.

* Foucault, Michel. Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings, 1972–1977.

Edited by Colin Gordon. New York: Pantheon Books, 1980.

* Halbwachs, Maurice. On Collective Memory. Edited, translated, and with an introduction by Lewis A. Coser. Chicago: University of Chicago Press, 1992.

* Said, Edward W. Culture and Imperialism. New York: Vintage Books, 1994.